

انتهى الدرس .. ولكن هل انتهى المسرح ؟

بعد مسرحيته الأولى الفاقدة الوعى .. شكلاً .. (منلريللا والمداح) ومسرحيته الثانية الفاقدة الهوية .. مضموناً (عيب يا آتمة) ، ومسرحيته الثالثة الفاقدة كل شىء .. شكلاً ومضموناً (نحن لانهجب الكوسة) ، نجىء مسرحيته الرابعة .. (انتهى الدرس ياغنى) ، عملاً لا أقول مقبولاً ومعقولاً وكفى بل أقولها باطمئنان عملاً جاداً وجيداً سواء فى شكله أو فى مضمونه . إنه البداية الحقيقية لفرقة المسرح الجديد ، أو بالأحرى هو الميلاد الجديد لهذا المسرح الجديد ..

فهنا مسرحية جديدة الطعم والمذاق بالنسبة للمسرح التجارى الذى استغرق فى الضحك والإضحاك حتى أغرق معه الجمهور ، وهو منذ البداية الإضحاك الحسى والاستهلاكى الرخيص ، وهو فى النهاية الضحك على عقل وقلب الجمهور .. أقول إنها جديدة لخلوها من هذا كله ، ومحاولتها أن تقول شيئاً جاداً عبر (الضحك القفى) المنبثق من الموقف الفكاهى والحدث الكوميدي ..

فما الذى تقوله هذه المسرحية ؟

تقول إن الداء الذى أصاب إنسان عالمنا المعاصر ، ليس هو أنيميا الذكاء ولكنه أنيميا الحب ، فى عصر لم يعد يخيف الناس فيه إله ولا عدالة ولا قدر ،

وإنما تحيف الناس حوادث المواصلات ، وثورات الطلاب ، وتهديدات السلام ، والخوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة تستخدم فيها الأسلحة النووية ، في عصر تجرى فيه العمليات الجراحية لزراعة القلوب ، ونقل الأعماخ ، وتحويل الذكر إلى أنثى ، وتخليق الأطفال في أنابيب الاختبار ، في عصر أفلس فيه الأيديولوجيات . وجاءت الثورة التكنولوجية لتقضى على كل قوانين الحتمية .. الحتمية المادية والحتمية التاريخية وحتى الحتمية العلمية ، بعد أن أصبح مبدأ اللاتعين أو (عدم التحديد) هو قانون العلم الفيزيائي الحديث ..

في عصر كهذا ، وصل الذكاء البشرى فيه إلى الذروة ، حتى التهم كل شيء . ولم يعد يبقى أمامه إلا أن يلتهم نفسه ، لاتصبح مشكلة العلم هو محو الغباء ، وزيادة معدلات الذكاء ، ولكنها تعقيم الحقد ، واستئصال غدد الكراهية ، وتنشيط غرائز الحب ، فليس الذكاء وإنما الحب ، هو خلاص إنسان عصرنا المعاصر .

هذه المعاني هي التي تدور حولها هذه المسرحية (انتهى الدرس ياغنى) ، وصحيح أنها مأخوذة عن الفيلم الأجنبي (تشارلى) الذى وضع قصته (دايفل كيسى) ، وكتب له السيناريو (ستيرلنج سيرفانت) وأخرجه « رالف ميسون » مخرج الفيلم الأمريكى الشهير (العسكرى الأزرق) وقام ببطولته « كليف روبرتسون » و « كلير بلوم » وحصل على جائزة الأوسكار لأحسن ممثل ، ولكن الصحيح أيضاً أن الإعداد المسرحى الذى قام به « لينين الروملى » ، مهما يكن لنا عليه من تحفظات ، فإنه فى النهاية الإعداد الذى حقق قدراً واضحاً من الذكاء والتجاح . فالمسرحية تبدأ بالدكتور الطيب « فريد » الذى تشغله عملية محو الغباء البشرى عن طريق تنشيط تلك الزائدة الغامضة فى المخ ، التى تسمى بالجسم الصنوبرى ، والتى تتدلى مثل ترمسة صغيرة فى المخ بلا وظيفة معروفة ، وكان يعتقد

في الماضي أنها مركز الاتصالات الروحية ، وهو الاعتقاد الذي رفضه العلماء في العصر الحديث .

ويكلف الدكتور « فريد » ابنته نبيلة التي تعمل مساعدة له ، بالبحث عن يجرى عليه هذه التجربة .. على أن يكون من الغباء بحيث لا تزيد درجة ذكائه على درجة ذكاء فأر ، وتنجح نبيلة في الحصول على « سطوحى » .. شاب ضائع لا يعرف له أب من أم ، ولا يعرف لنفسه هوية ، وجد هكذا هائماً على وجهه في المقابر . وبعد أن تجرّى عليه اختبارات الذكاء ، وخاصة اختبار (الفأر في المتاهة) ، يكشف أن ذكاءه أقل من ذكاء الفأر ، وأن عمره العقلي لا يزيد على سبع سنوات ، وهو البالغ من العمر ٢٥ سنة ..

ويجد الدكتور « فريد » في الشاب « سطوحى » هدفه المنشود ، الذي يجرى عليه تجربته العلمية ، متحدياً زميله الدكتور « شفيق » الذي طالما شككه في التجربة وأكد له فشلها مراراً ، وتنجح التجربة ويكسب الدكتور « فريد » الجولة الأولى ، ولا يبقى أمامه إلا أن يتلقى « سطوحى » عدة دروس في نحو الأمية وفي تعلم الإتيكيت الاجتماعي ، قبل أن يقدمه في المؤتمر الطبي أمام أجهزة الإعلام ، وأمام الرأي العلمي العالمي .

وتتولى « نبيلة » تلقينه هذه الدروس ، التي تنقله من مستواه الحشرى الأول إلى المستوى البشرى الجديد ، ولكنه في نهاية الدروس يكون قد وقع في حبا وهي المخطوبة لابن عمها « سامى » الفتى الرياضى الثرى . ويحاول « سطوحى » أن يقبل « نبيلة » في درس الرقص الأخير ، ولكنها تصفعه على وجهه مذكرة إياه بمستواه الطبقي ، فلا يجد أمامه إلا أن يهرب من جو هذا البيت ، ومن حياة هذه الأسرة . ويختنق « سطوحى » عاماً كاملاً ، تنهار فيه أحلام الدكتور « فريد » ، ويفقد

القدرة على الحياة ، فتكتب « نيلة » إعلاناً في كل الصحف تناشد فيه « سطوحى » أن يظهر رحمة بأبيها الطيب المريض ، وبالفعل يظهر « سطوحى » إنساناً جديداً في كل شيء ، في مظهره الخارجى ، وفي سلوكه الاجتماعى ، وفي ثقافته العامة ، وفي خبرته بالحياة ، وتقع « نيلة » في حبه ، ولكنه يعرض عنها ، ويتعالى على الجميع بعد أن يوافق على حضور المؤتمر ، وفي المؤتمر يعلن الدكتور « فريد » عن معجزته العلمية ، بعد أن يعرض سطوحى في صورته القديمة ، وبعد أن يشير إليه في مظهره الجديد ، ذكياً بعد أن كان غيباً ، مثقفاً بعد أن كان جاهلاً ، ثرياً بعد أن كان فقيراً ، متحضراً بعد أن كان همجياً لايعرف شيئاً عن أى شيء .

ويدرك « سطوحى » خطورة المأساة ، مأساة انتكاسته بعد شهرين ، وعودته إلى حالته الأولى ، تماماً كما انتكس فأر التجربة ، فيفوت على الدكتور « فريد » وابنته « نيلة » حلاوة هذا النجاح ، وبعد أن يلقى درسه على الجميع ، في أن خلاص الإنسان ليس في الذكاء ولكنه في الحب ، يفتعل الانتكاسة التى تفضح كل أولئك الذين عبثوا بعقله وعواطفه وكيانه البشرى كله ، وبهذه النهاية المضحكة في أسف ، أو هذا الحلم الوردى الذبيح ، ينتهى الدرس ، ويانتهى تنهى المسرحية .

وقد وفق الإعداد المسرحى في إيصال المعنى وإبلاغ الفكرة ، كما وفق في بلورة شخصية البطل المحورى الذى تدور حوله أحداث المسرحية ، هذا بالإضافة إلى توفيقه في الالتزام بعنصر الجدية داخل الإطار الكوميدي ، أما الذى لم يوفق فيه الإعداد فهو الاحتفاظ بالحبكة المسرحية حتى النهاية ، فبدلاً من أن ينتهى الفصل الأول على إجراء العملية ليبدأ الفصل الثانى بالعملية وقد أجريت بالفعل ، لئلا تآرأها طوال هذا الفصل ، فتاجأ في الفصل الثانى « بسطوحى » وهو لايزال في تحلقه العقلى ، غير قادر على أن يسبق الفأر في المتاهة ، وعندما يتحدى الفأر

ويسبقه بعد ذلك ، لاندري هل كان ذلك بفعل العملية أم بسبب عوامل أخرى ، كذلك لا أدري لماذا حرص الإعداد على وحدة المكان طوال الفصول الثلاثة ، وهو ما أدى إلى التداخل المتعل بين جو البيت وجو العيادة ، ولو كان المعد أكثر تمسكاً بفن المسرح ، لأدار الفصل الأول في البيت ، والثاني في العيادة ، وجعل الفصل الثالث والأخير خاصاً بالمؤتمر ، فالشهد الخاص بالمؤتمر كان أشبه بالشئ المعلق في نهاية المسرحية ، لاهو بالفصل الرابع ولاهو من قبيل (الإيلوج) المسرحي ، وإلا كان لزاماً عليه أن يستهل المسرحية بما يشبه (البرولوج) المسرحي ، هذا على الرغم من خطر المشهد الأخير وخطورته في وقت واحد .

وصحيح أن شخصية « سطوحى » كانت كاملة الاستدارة ، ولكن هل كان له في مرحلته الأولى تحت البشرية ، التي لاهم له فيها إلا الأكل ، أن يرفض الجنس مع الخادمة « سنية » ، حفاظاً على مشاعر الحب مع الآنسة « نبيلة » ؟ وإذا كان قد افتعل الانتكاسة في مشهد المؤتمر الطبي ، فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ ومن أين جاءه أنه سيتكس بعد شهرين من تاريخ انعقاد المؤتمر ؟ هذه التساؤلات جميعاً لانكاد نجد لها إجابة في المسرحية .

على أنه إذا كانت شخصية « سطوحى » رغم هذا كله ، قد جاءت كاملة الاستدارة ، فقد كان ذلك على حساب أكثر الشخصيات الأخرى ، فالدكتور « فريد » مثلاً تآرجحت شخصيته بين العالم الحقيقي الذى يضحى بحياته من أجل تجاربه العلمية كما قال في نهاية المسرحية ، وبين الطبيب الانتهازى الذى لايهمه سوى نجاح المؤتمر مها كان الثمن . والدكتور « شفيق » أيضاً تاهت شخصيته بين جنون العالم العبرى ، وبين هذيان النصاب المشعوز ، أما شخصية « سلوى »

الصحفية فلا ندرى لماذا رسمت بكل هذه « الهياقة » والتسطيح ، بل لاندري ماهو
مبرر كل هذه السخرية والاستهزاء بدور الصحافة ؟

وبحسب الإخراج ليؤكد قدرة « السيد راضى » على تقديم كوميديا أقل ماتوصف
به أنها أكثر نظافة ، من كل أعماله الكوميدية السابقة ، فقد نجح في تجسيد المضمون
المسرحى ، وبلورة الشخصيات الكوميدية ، وإدارة أحداث المسرحية من خلال
إضحاك لا إسفاف فيه ولا ابتذال . وربما كان الاستثناء هنا هو مشهد درس
الإنبيكيت فى الفصل الثانى الذى لم يكن محكم الأداء ، والذى أدى إلى الإطالة
والإملال ، وكذلك مشهد المؤتمر الذى كان هزيبا بشكل صارخ ، يفتقر إلى الكثير
من عناصر الديكور والإكسسوار والموسيقى والإضاءة ، التى تضفى عليه جو الرهبة
والإقناع ، هذا بالإضافة إلى كثرة الأسئلة الصحفية بين (سلوى) وسطوحى والتى
أدت إلى هبوط الإيقاع ، وأخيراً نهاية المسرحية حيث يُسدل الستار على « نبيلة »
وهى تعطى ظهرها فى أسى وندم للجمهور ، وهى النهاية الضعيفة الفاترة التى
لا تكاد تشعر معها بانتهاء المسرحية .

فإذا تناولنا الديكور ، لكررنا هنا ماسبق أن قلناه ، من أنه كان يحتاج إلى مزيد
من التعبير ومزيد من الثراء ، كأن تدور أحداث الفصل الأول فى البيت ، والثانى
فى العيادة ، والثالث فى المؤتمر ، فإذا تعاضينا عن الديكور الواحد فى الفصلين
الأولين ، كان ينبغى أن يحدث أى تغيير على ديكور الفصل الثالث ، حتى نشعر
بمرور عام بأكمله على غياب « سطوحى » ، أما ديكور مشهد المؤتمر ، فلم توفق
« نهمى برادة » فى تجسيده على الإطلاق ، كان هزيبا بشكل صارخ ، بل كان فقيراً
بشكل فاضح .

أما الموسيقى التى قام بتوليها ولا أقول بتأليفها « مرسى الخطاب » ، فكانت أى

كلام ، مجرد الخان ملصقة بالمرحبة من الخارج ، دون أى تعبير عن المضمون ، أو تصوير للشخصيات ، أو تفسير للمعنى الكلى العام ، وما كان أحوج هذا العرض إلى موسيقى عصرية من نوع الموسيقى الألكترونية مثلاً ، تساعد على تصوير مافيه من جوانب علمية وطبية ، وتفسير مايعتمل فى كيان البطل من تحولات ذهنية وعاطفية فضلاً عما يصيب باقى الشخصيات من توترات عصبية وأحداث مثيرة .

فإذا انتقلنا إلى الأداء التمثيلى ما وجدنا جديداً نقوله فيما يتعلق بمملاق المسرح .. « محمود المبيجى ، وتوفيق الدقن » ، فكلاهما له حضوره المسرحى ، وسرعة تجاوبه مع الجمهور ، وكلاهما له ترمسه المسرحى وقدرته على الدخول تحت جلد الدور ، وقد نلاحظ عليها التأرجح والاهتزاز فى أداء الدور ، لعدم عنوركل منها على مفتاح الشخصية ، مما أصاب أداءها التمثيلى بقدر واضح من عدم الإقناع ، ولو أن مسئولية ذلك تقع على عاتق الإعداد من ناحية ، والإخراج من ناحية أخرى .

أما « خيرية أحمد » ولو أنها وفقت إلى حد كبير فى أداء دورها ، إلا أنها بوجه عام لم تكن هى الملائمة تماماً لهذا الدور ، فالدور كان يحتاج إلى (فيديت) مسرحية أصغر سناً ، وأخف حركة ، وأكثر جاذبية ، حتى تقنعنا بتكافؤ العلاقة العاطفية بينها وبين « محمد صبحى » ، ذلك النجم المسرحى الجديد الذى إذا أسقطنا من حسابنا أدواره القليلة السابقة ، التى حسبت عليه أكثر مما حسبت له ، لقلنا إنه استطاع أن يرد اعتباره فى هذا الدور . وأن يكشف عن ممثل مثقف وموهوب ، نجح فى الانتقال بدوره من النمطية الكاريكاتيرية إلى الشخصية الكوميديية ، بفضل قدرته الذاتية على التلوين والتعبير ، إنه هنا نسيم جديد يهب على حياتنا المسرحية ، يبشر بعطاء فنى وفير .

وبعد .. فقد انتهى الدرس فعلاً ، الدرس الذى تعلمته فرقة (المسرح الجديد) من عروضها الهزلية والهزلية السابقة ، حتى كان هذا العرض الأكثر نظافة والأكثر جدية ، برغم كل ما لنا عليه من تحفظات ، والسؤال هو : إذا كانت هذه المسرحية ميلاداً جديداً لفرقة المسرح الجديد ، فهل بانتهاء الدرس ينتهى هذا المسرح ، أم أنه سيكون درساً لباقي أعياء المسرح التجارى ؟ ..